الابتلاء في القرآن الكريم " حكمته وفوائده".

د. محمد الطيب ساعد أحمد*

مقدمة:

إن من السنن الكونية وقوع الابتلاء على المخلوقين اختباراً لهم، وتمحيصاً لذنوبهم ،وتمييزاً بين الصادق والكاذب منهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ البقرة: ١٥٥ - ١٥٧

قال أبو جعفر: وهذا إخبار من الله تعالى ذكره: أتباعَ رَسوله صلى الله عليه وسلم، أنه مبتليهم وممتحنهم بشدائد من الأمور، ليعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، كما ابتلاهم فامتحنهم بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وكما امتحن أصفياءَهـ قبلهم. ووَعدهم ذلك في آية أخرى فقال تَعَالَى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ البقرة: ٢١٤]، ومعنى قوله:"وَلنبلونكم"، ولنختبركم. وقد أتينا على البيان عن أن معنى"الابتلاء" الاختبار، فيما مضى قبل.، وقوله:"بشيء من الخوف"، يعني من الخوف من العدو، وبالجوع -وهو القحط- يقول: لنختبركم بشيء من خوف ينالكم من عدوكم وبسَنه تُصيبكم ينالكم فيها مجاعة وشدة، وتتعذر المطالب عليكم فتنقص لذلك أموالكم، وحروبٌ تكون بينكم وبين أعدائكم من الكفار، فينقص لها عددكم، وموتُ ذراريكم وأولادكم،

---

* أستاذ مساعد بقسم القرآن الكريم – كلية أصول الدين – جامعة أم درمان الإسلامية.

وجدب تحدُث، فتنقص لها ثماركم. كل ذلك امتحان مني لكم، واختبار مني لكم، فيتبين صادقوكم في إيمانهم من كاذبيكم فيه، ويُعرف أهل البصائر في دينهم منكم، من أهل النفاق فيه والشك والارتياب.[1]

كل ذلك خطابٌ منه لأتباع رَسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، كما: في قوله:"ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع" قال، هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم.

وإنما قال تعالى ذكره:"بشيء من الخوف" ولم يقل بأشياء، لاختلاف أنواع ما أعلم عبادَه أنه مُمتحنهم به. فلما كان ذلك مختلفًا - وكانت"مِن" تَدلّ على أنّ كل نوع منها مُضمر"شيء"، فإنّ معنى ذلك: ولنبلونكم بشيء من الخوف، وبشيء من الجوع، وبشيء من نقص الأموال - اكتفى بدلالة ذكر"الشيء" في أوله، من إعادته مع كل نوع منها.ففعل تعالى ذكره: كل ذلك بهم، وامتحنهم بضروب المحَن، كما قال تعالى:- الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) البقرة.،قال الله عند ذلك:"وبشر الصابرين الذين إذا أصَابتهم مُصيبه قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عَلمهم صَلَواتٌ من رَبهم ورَحمة وأولئك هُمُ المهتدون".[2]

ثم قال تعالى ذكره: لنبيه صلى الله عليه وسلم: يا محمد، بشّر الصابرين على امتحاني بما أمتحنهم به، والحافظين أنفسهم عن التقدم على نَهْيي عما أنهاهم عنه، والآخذين أنفسهم بأداء ما أكلفهم من فرائضي، مع ابتلائي إياهم بما أبتليهم به، القائلين إذا أصابتهم مصيبة:"إنا لله وإنا إليه رَاجعون". فأمره الله تعالى ذكره: بأن يخصّ -بالبشارة على ما يمتحنهم به من الشدائد- أهلَ

[1] - تفسير بن جرير الطبري ج٣ص٢١٩

[2] - تفسير بن جرير الطبري ج٣ص٢٢٠

الصبر، الذين وصف الله صفتهم.وأصل"التبشير": إخبار الرجل الرجل الخبرَ، يَسرّه أو يسوءه، لم يسبقه به إلى غيره القول في تأويل قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ ﴾ البقرة: ١٥٦ والمصيبة: النكبة ينكبها الإنسان وإن صغرت، وتستعمل في الشر، روى عكرمة أن مصباح رسول الله صلى الله عليه وسلم انطفأ ذات ليلة فقال: " إنا لله وإنا إليه راجعون " فقيل: أمصيبة هي يا رسول الله ؟ قال: (نعم كل ما آذى المؤمن فهو مصيبة). قلت: هذا ثابت معناه في الصحيح، أخرج مسلم عن أبي سعيد وعن أبي هريرة رضي الله عنهما أنهما سمعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا سقم ولا حزن حتى الهم يهمه إلا كفر به من سيئاته).

الثانية --أ خرج ابن ماجه: في سننه: عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أصيب بمصيبة فذكر مصيبته فأحدث استرجاعا وإن تقادم عهدها كتب الله له من الأجر مثله يوم أصيب).[٣]

(قَالَ تَعَالَى: ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٣٥ ﴾ الأنبياء: ٣٥) أي نختبركم { بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ } بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، وقيل: بما تحبون وما تكرهون، { فِتْنَةً } ابتلاء لننظر كيف شكركم فيما تحبون، وصبركم فيما تكرهون، { وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ }:[٤] قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ٣١ ﴾ محمد: ٣١ وقَالَ تَعَالَى: ﴿ الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢

٣ - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج/٢ ص١٧٥

٤ -معالم التنزيل أبو محمد بن مسعود البغوي ٥/ ٣١٨

وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ العنكبوت: (١ - ٣)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط."[٥]

وأكمل الناس إيمانا أشدهم إبتلاءاً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلباً اشتد به بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة. أخرجه الإمام أحمد وغيره.[٦]

بَلِيَ الثوب (يَبْلَى) من باب تعب (بِلًى) بالكسر والقصر و (بَلاءً) بالفتح والمدّ خلق فهو (بَالٍ) و (بَلِيَ) الميت أفنته الأرض و (بَلاهُ) الله بخير أو شرّ (يَبْلُوهُ بَلْوًا) و (أَبْلاهُ) بالألف و (ابْتَلاهُ ابْتِلاءً) بمعنى امتحنه والاسم (بَلاءٌ) مثل سلام و (البَلْوَى والبَلِيَّةُ) مثله.

و(بَلَى) حرف إيجاب فإذا قيل ما قام زيد وقلت في الجواب (بَلَى) فمعناه إثبات القيام وإذا قيل أليس كان كذا وقلت (بَلَى) فمعناه التقرير والإثبات ولا تكون إلا بعد نفي إما في أول الكلام كما تقدم وإما في أثنائه كقوله تعالى:

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ ﴾ القيامة: ٣ - ٤

أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَى) والتقدير بلى نجمعها وقد يكون مع النفي استفهام وقد لا يكون كما تقدم فهو أبدا يرفع حكم النفي ويوجب نقيضه

[٥] – سنن الترمذي ج٩/ص٢٢٣

[٦] –المستدرك على الصحيحين للحاكم (١٢/٤٠٠/حديث رقم ٥٤٣).

وهو الإثبات وقولهم (لا أبَاليهِ وَلا أبَالِي بِهِ) أي لا أهتم به ولا أكترث لـه و (لَمْ أبَالِ) و (لَمْ أبلْ) للتخفيف كما حذفوا الياء من المصدر فقالوا (لا أُبَاليـهِ بَالَةً) والأصل بالية مثل عافاه معافاة وعافية قالوا ولا تستعمل إلا مع الجحود والأصل فيه قولهم (تَبَالَى) القوم إذا تبادروا إلى الماء القليل فاستقوا فمعنـى (لا أُبَالِي) لا أبادر إهمالا له وقال أبو زيد (مَا بَالَيْتُ بِـهِ مُبَـالاةً) والاسـم (البَلاءُ) وزان كتاب وهو الهمّ الذي تحدث به نفسك.[٧]

والفتنة: (فتن) معنى الفِتْنة الابتلاء والامْتِحانُ والاختبار وأَصلها مأْخوذ من قولك فتَنْتُ الفضة والذهب إِذا أَذبتهما بالنار لتميز الرديء من الجيِّدِ وفي الصحاح إِذا أَدخلته النار لتنظر ما جَوْدَتُه.[٨]

وللإبتلاء حكم كثيرة أهمها:

- معرفة حقيقة النفس.
- التربية وكشف خبايا النفوس .
- الاعداد الحقيقي لتحمل الأمانة.
- رفع المنزلة والدرجة عند الله تعالى وتكفير السيئات.

التربية وكشف خبايا النفوس:

تصفية النفوس:

تصفية النفوس ومعرفة المحق من المبطل،وذلك لأن المرء قد لا يكشف في الرخاء ولكن تكشـفه الشـدة قَالَ تَعَالَى:﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ ﴾ العنكبوت: ١ – ٢.{ آلَمَ، أحسب الناس أن يتركوا} [العنكبوت: ١-٢] الآيتين . فأعلمه أن أمته لم تخص دون الأمـم بـالفتن،

---

٧ – المصباح المنير – باب كتاب الباء – (٦٢/١).

٨ – لسان العرب (باب فتن ٢١٧/١٣).

وأنها ستبتلى كما ابتليت الأمم، ثم أنزل عليه {قال تعالى:﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ المؤمنون: ٩٣ - ٩٤ [فتعوذ نبي الله فأعاذه الله لم ير من أمته إلا الجماعة والألفة والطاعة، ثم أنزل عليه آية حذر فيها أصحاب الفتنة، فأخبره أنه إنما يخص بها ناس منهم من دون ناس فقال {﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ الأنفال: ٢٥ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب } [الأنفال: ٢٥] فخص بها أقواماً من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بعده، وعصم بها أقواماً » .[٩]

قال تعالى: (﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ العنكبوت:

ولَقَدْ فَتَنَّا الذين مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ الله } [العنكبوت: ١ ٣] وقال: { أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الجنة ولَمَّا يَعْلَمِ الله الذين جاهدوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصابرين } [آل عمران: ١٤٢] والمقصود من هذه الآية ما ذكرنا أن أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام كان ينالهم الأمر العظيم من البأساء والضراء من المشركين والمنافقين واليهود، ولما أذن لهم في القتال نالهم من الجراح وذهاب الأموال والنفوس ما لا يخفى، فعزاهم الله في ذلك وبين أن حال من قبلهم في طلب الدين كان كذلك، والمصيبة إذا عمت طابت، وذكر الله من قصة إبراهيم عليه السلام وإلقائه في النار، ومن أمر أيوب عليه السلام وما ابتلاه الله به، ومن أمر سائر الأنبياء عليهم السلام في مصابرتهم على أنواع البلاء ما صار ذلك في سلوة المؤمنين .

---

[٩] -الدر المنثورفي التأويل بالمأثور أبو بكر السيوطي ٤/ ٧٤،

روى قيس بن أبي حازم عن خباب بن الأرت، قال: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما نلقى من المشركين، فقال: « إن من كان قبلكم من الأمم كانوا يعذبون بأنواع البلاء فلم يصرفهم ذلك عن دينهم، حتى إن الرجل يوضع على رأسه المنشار فيشق فلقتين، ويمشط الرجل بأمشاط الحديد فيما دون العظم من لحم وعصب وما يصرفه ذلك عن دينه، وايم الله ليتمّن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب ما بين صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون[١٠].

التربية: وفي هذا يقول سيد قطب رحمه الله"ثم أنه الطريق الذي لا طريق غيره لإنشاء الجماعة التي تحمل هذه الدعوة وتنهض بتكاليفها، طريق التربية لهذه الجماعة، وإخراج مكنوناتها من الخير والقوة والاحتمال وهو طريق المزاولة العملية للتكاليف والمعرفة الواقعية لحقيقة الناس وحقيقة الحياة، ذلك ليثبت على هذه الدعوة أصلب أصحابها عوداً،فهؤلا هم الذين يصلحون لحملها إذن بالصبر عليها فهم عليها مؤتمنون".[١١]

وكذلك الكشف عن خبايا النفوس. وفي هذا المعنى والله يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء ولكن الابتلاء يكشف في عالم الواقع ما هو مكشوف لعلم الله تعالى.

الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة:

ذكر صاحب الظلال "وما بالله وماشاء لله أن يعذب المؤمنين بالابتلاء، وأن يؤذيهم بالفتنة، ولكنه الاعداد الحقيقي بتحمل الأمانة، فهي في حاجة إلى إعداد خاص.

---

١٠ -- مفاتيح الغيب أوالتفسير الكبير ج٣/ - أبو عبد الله محمد بن عمر التميمي الرازي.

١١ -- في ظلال القرآن _ سيد قطب (ج٢/١٨٠).

لا يتم إلا بالمعاناة العملية للمشاق، وإلا بالثقة الحقيقية في نصر الله وثوابه على الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء، والنفس تصدها الشدائد فتنتفي عنها الخبث وتستجني كامن قواها المدخورة فتستيقظ وتتجمع، وتطرقها بعنف، وشدة فيشتد عودها وصلب ويصقل، وكذلك تفعل الشدائد بالجماعات، فلا يبقى صامداً إلا أصلها عوداً، وأقواها طبيعة، وأشدها اتصالاً بالله، وثقة فيما عنده من الحسنتين النصر أو الأجر وهؤلاء هم يسلمون الراية في النهاية مؤتمنين عليها بعد الاستعداد والاختبار.[١٢]

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ الأحزاب: ٧٢

إنا عرضنا الأمانة:لما أرشد الله المؤمنين إلى مكارم الأخلاق وأدب النبي عليه السلام بأحسن الآداب بين أن التكليف الذي وجهه الله إلى الإنسان أمر عظيم فقال) إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ (أي التكليف وهو الأمر بخلاف ما في الطبيعة واعلم أن هذا النوع من التكليف ليس في السموات ولا في الأرض لأن الأرض والجبال والسماء كلها على ما خلقت عليه الجبل لا يطلب منه السير والأرض لا يطلب منها الصعود ولا من السماء الهبوط ولا في الملائكة لأن الملائكة وإن كانوا مأمورين منهيين عن أشياء لكن ذلك لهم كالأكل والشرب لنا فيسبحون الليل والنهار لا يفترون كما يشتغل الإنسان بأمر موافق لطبعه وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى في الأمانة:

وجوه كثيرة منها من قال هو التكليف وسمي أمانة لأن من قصر فيه فعليه الغرامة ومن وفر فله الكرامة.

---

[١٢] – ظلال القرآن (ج ٦/٣٨٧).لسيد قطب.

ومنهم من قال هو:

قول لا إله إلا الله وهو بعيد فإن السموات والأرض والجبال بألسنتها ناطقة بأن الله واحد لا إله إلا هو ومنهم من قال الأعضاء فالعين أمانة ينبغي أن يحفظها والأذن كذلك واليد كذلك والرجل والفرج واللسان ومنهم من قال معرفة الله بما فيها والله أعلم

المسألة الثانية: في العرض وجوه منهم من قال المراد العرض ومنهم من قال الحشر ومنهم من قال المقابلة أي قابلنا الأمانة على السموات فرجحت الأمانة على أهل السموات والأرض .

المسألة الثالثة: فِي السَّمَاوَاتِ والأرض (وجهان أحدهما أن المراد هي بأعيانها والثاني المراد أهلوها ففيه إضمار تقديره إنا عرضنا الأمانة على أهل السموات والأرض .

المسألة الرابعة: قوله (فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا) لم يكن إباؤهن كإباء إبليس في قوله تعالى) أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ((الحجر ٣١) من وجهين أحدهما أن هناك السجود كان فرضاً وههنا الأمانة كانت عرضاً وثانيهما أن الإباء كان هناك استكباراً وههنا استصغاراً استصغرن أنفسهن بدليل قوله) وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا).

المسألة الخامسة: ما سبب الإشفاق نقول الأمانة لا تقبل لوجوه أحدها أن يكون عزيزاً صعب الحفظ كالأواني من الجواهر التي تكون عزيزة سريعة الانكسار فإن العاقل يمتنع عن قبولها .

المسألة السادسة: كيف حملها الإنسان ولم تحملها هذه الأشياء فيه جوابان أحدهما بسبب جهله بما فيها وعلمهن ولهذا قال تعالى) إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (والثاني أن الأشياء نظرت إلى أنفسهن فرأين ضعفهن فامتنعن والإنسان نظر إلى جانب المكلف وقال المودع عالم قادر لا يعرض الأمانة إلا على أهلها

وإذا أودع لا يتركها بل يحفظها بعينه وعونه فقبلها وقال) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ((الفاتحة ٥)

المسألة السابعة: قوله تعالى:(إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً) فيه وجوه أحدها أن المراد منه آدم ظلم نفسه بالمخالفة ولم يعلم ما يعاقب عليه من الإخراج من الجنة ثانيها المراد الإنسان يظلم بالعصيان ويجهل ما عليه من العقاب ثالثها إنه كان ظلوماً جهولاً أي كان من شأنه الظلم والجهل يقال فرس شموس ودابة جموح وماء طهور أي من شأنه ذلك فكذلك الإنسان من شأنه الظلم والجهل فلما أودع الأمانة بقي بعضهم على ما كان عليه وبعضهم ترك الظلم كما قال تعالى) الَّذِينَ ءامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ((الأنعام ٨٢) وترك الجهل كما قال تعالى في حق آدم عليه السلام) وَعَلَّمَ ءادَمَ الاسْمَاء كُلَّهَا ((البقرة ٣١) وقال في حق المؤمنين عامة) وَالرسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءامَنَّا بِهِ ((آل عمران ٧) وقال تعالى) إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء ((فاطر ٢٨) رابعها) إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (في ظن الملائكة حيث قالوا) أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا (البقرة ٣٠) وبين علمه عندهم حيث قال تعالى) أَنبِئُونِى بِأَسْمَاء هَؤُلاء (البقرة ٣١) وقال بعضهم في تفسير الآية إن المخلوق على قسمين مدرك وغير مدرك والمدرك منه من يدرك الكلي والجزئي مثل الآدمي ومنه من يدرك الجزئي كالبهائم ثم تدرك الشعير الذي تأكله ولا تتفكر في عواقب الأمور ولا تنظر في الدلائل والبراهين . والأمانة كان عرضها على آدم فقبلها فكان أميناً عليها والقول قول الأمين فهو فائز بقي أولاده أخذوا الأمانة منه والآخذ من الأمين ليس بمؤتمن ولهذا وارث المودع لا يكون القول قوله ولم يكن له بد من تجديد عهد وائتمان فالمؤمن اتخذ عند الله عهداً فصار أميناً من الله فصار القول قوله فكان له ما كان لآدم من الفوز

ولهذا قال تعالى ٠(ويَتوبَ اللهُ علَى المُؤمنِينَ والمُؤمِناتِ) (الأحزاب ٧٣) أي كما تاب على آدم في قوله تعالى (فَتَابَ عَلَيْهِ) (البقرة ٣٧)[١٣]

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ محمد: {ولَنَبْلُونَّكُمْ } أي: نختبر إيمانكم وصبركم، { حتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ والصَّابِرِينَ ونبلوا أَخْبَارَكُمْ } فمن امتثل أمر الله وجاهد في سبيل الله لنصر دينه وإعلاء كلمته فهو المؤمن حقا، ومن تكاسل عن ذلك، كان ذلك نقصا في إيمانه.[١٤]

معرفة حقيقة النفس:

وذلك لكي يعرف أصحاب الدعوة حقيقتهم هم أنفسهم يزاولون الحياة والجهاد ومزاولة عملية واقعية، ويعرفوا حقيقة النفس البشرية وخباياها، فالجماعات والمجتمعات، وكيف تصطرع مبادئ دعوتهم مع الشهوات في أنفسهم وفي أنفس الناس.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ﴾ آل عمران: ١٤

{زُيّنَ للناسِ } المزين هو الله سبحانه وتعالى للابتلاء، كقوله: { إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأرض زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوهُمْ } [الكهف: ٧] ويدل عليه قراءة مجاهد: «زَيّنَ للناس»، على تسمية الفاعل . وعن الحسن: الشيطان . والله زينها لهم،

---

[١٣] التفسير الكبير للرازي (٢٥/٢٠٢)

[١٤] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان السعدي ج١/ ص: ٧٨٩.

لأنا لا نعلم أحداً أذم لها من خالقها { حُبُّ الشهوات } جعل الأعيان التي ذكرها شهوات مبالغة في كونها مشتهاة محروصاً على الاستمتاع بها . والوجه أن يقصد تخسيسها فيسميها شهوات، لأن الشهوة مسترذلة عند الحكماء مذموم من اتبعها شاهد على نفسه بالبهيمية، وقال: { زُيّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشهوات } ثم جاء التفسير، ليقرر أوّلا في النفوس أن المزين لهم حبه ما هو إلا شهوات لا غير، ثم يفسره بهذه الأجناس، فيكون أقوى لتخسيسها، وأدلّ على ذم من يستعظمها ويتهالك عليها ويرجح طلبها على طلب ما عند الله . والقنطار: المال الكثير .:.. و { المسومة } المعلمة، من السومة وهي العلامة . أو المطهمة أو المرعية من أسام الدابة وسوّمها { والانعام } الأزواج الثمانية { ذلك } المذكور (مَتَاعُ الحياة).[15]

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) ﴾ البقرة: ١٥٥ - ١٥٧

وهذا إخبار من الله تعالى ذكره أتباع رسوله أنه مبتليهم وممتحنهم بشدائد من الأمور ليعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه كما ابتلاهم فامتحنهم بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة وكما امتحن أصفياءه قبلهم ووعدهم ذلك في آية أخرى فقال لهم أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب

عن بن عباس قوله ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونحو هذا قال أخبر الله المؤمنين أن الدنيا دار بلاء وأنه مبتليهم فيها وأمرهم بالصبر وبشرهم

[15] – الكشاف ج ١/ص ٢٥٩،لأبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري.

فقال وبشر الصابرين ثم أخبرهم أنه فعل هكذا بأنبيائه وصفوته لتطيب أنفسهم فقال مستهم البأساء والضراء وزلزلوا

ومعنى قوله ولنبلونكم ولنختبركم

وقد أتينا على البيان عن أن معنى الابتلاء الاختبار فيما مضى قبل

وقوله بشيء من الخوف يعني من الخوف من العدو وبالجوع وهو القحط يقول لنختبرنكم بشيء من خوف ينالكم من عدوكم وبسنة تصيبكم ينالكم فيها مجاعة وشدة وتعذر المطالب عليكم فتنقص لذلك أموالكم وحروب تكون بينكم وبين أعدائكم من الكفار فينقص لها عددكم وموت ذراريكم وأولادكم وجدوب تحدث فتنقص لها ثماركم كل ذلك امتحان مني لكم واختبار مني لكم فيتبين صادقوكم في إيمانهم من كاذبيكم فيه ويعرف أهل البصائر في دينهم منكم من أهل النفاق فيه والشك والارتياب كل ذلك خطاب منه لأتباع رسول الله وأصحابه .[16]

والبلاء: أصله المحنة

وفي الحديث: " أعوذ بالله من جهد البلاء، إلا بلاء فيه علاء " أي علو منزلة عند الله.[17]

أصله المحنة ومعنى نبلوكم نمتحنكم لنختبركم هل تصبرون على القضاء أم لا وتنكير شيء للتقليل أي بشيء قليل من هذه الأمور وقرأ الضحاك بأشياء والمراد بالخوف ما يحصل لمن يخشى من نزول ضرر به من عدو أو غيره وبالجوع المجاعة التي تحصل عند الجدب والقحط وبنقص الأموال ما يحدث فيها بسبب الحوائج وما أوجبه الله فيها من لزكاة ونحوها وبنقص الأنفس

---

[16] -.(الطبري(ج٢/ص٤١).

[17] -أساس البلاغة للزمخشري ج١/ص ٣٢،

الموت والقتل في الجهاد وبنقص الثمرات ما يصيبها من الآفات وهو من عطف الخاص على العام لشمول الأموال للثمرات وغيرها وقيل المراد بنقص الثمرات موت الأولاد وقوله (وبشر الصابرين) أمر لرسول الله ﷺ أو لكل من يقدر على التبشير وقد تقدم معنى البشارة والصبر أصله الحبس ووصفهم بأنهم المسترجعون عند المصيبة لأن ذلك تسليم ورضا،
والمصيبة واحدة المصائب وهي النكبة التي يتأذى بها الإنسان وإن صغرت وقوله) إنا لله وإنا إليه راجعون (فيه بيان أن هذه الكلمات ملجأ للمصابين وعصمة للممتحنين فإنها جامعة بين الإقرار بالعبودية لله والاعتراف بالبعث والنشور البقرة (١٥٧)(أولئك عليهم صلوات).
ومعنى الصلوات هنا المغفرة والثناء الحسن قاله الزجاج[١٨] وعلى هذا فذكر الرحمة لقصد التأكيد وقال في الكشاف الصلاة الرحمة والتعطف فوضعت موضع الرأفة وجمع بينها وبين الرحمة كقوله رأفة ورحمة) لرءوف رحيم (والمعنى عليهم رأفة بعد رأفة ورحمة بعد رحمة بعد رحمة انتهى .
وقيل المراد بالرحمة كشف الكربة وقضاء الحاجة و) المعتدون (قد تقدم معناه وإنما وصفوا هنا بذلك لكونهم فعلوا ما فيه الوصول إلى طريق الصواب من الاسترجاع والتسليم
عن ابن عباس في قوله) ولنبلونكم (الآية قال أخبر الله المؤمنين أن الدنيا دار بلاء وأنه مبتليهم فيها وأمرهم بالصبر وبشرهم فقال) وبشر الصابرين (وأخبر أن المؤمن إذا سلم لأمر الله ورجع واسترجع عند المصيبة كتب الله له ثلاث خصال من الخير الصلاة من الله والرحمة وتخفيف سبيل الهدى وقال رسول الله ﷺ (من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته وأحسن

١٨ - الزجاج: هو أبو مسعود عبد الرحمن بن الحسن الزجاج (لسان الميزان،للعسقلاني ٣/٤٠١١).

عقباه وجعل له خلفا صالحا يرضاه .) ونقص من الثمرات (قال يأتي على الناس زمان لا تحمل النخلة فيه إلا تمرة .

عن ابن عباس قال قال النبي ﷺ [١٩] (أعطيت أمتي شيئا لم يعطه أحد من الأمم أن يقولوا عند المصيبة إنا لله وإنا إليه راجعون وقد ورد في فضل الاسترجاع عند المصيبة أحاديث كثيرة .البقرة ١٥٨.[٢٠]

فالصبر على الابتلاء دعوة صامتة لهذا الدين وهي التي تدخل الناس في دين الله تعالى..ولو وهنوا أو استكانوا لما استجاب لهم أحد لقد كان الفرد الواحد يأتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثم يأتيه أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يمضي إلى قومهم يدعوهم، ويصبر على تكذيبهم وأذاهم ويتابع طريقه حتى يعود بقومه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.[٢١]

ثم صمود المسلمين وتضحياتهم، تتوق النفوس القوية إلى هذه العقيدة، من خلال الصلابة الإيمانية، تكبر عند هذه الشخصيات الدعوة وحامليها، فيسارعون إلى الإسلام دون تردد، وأعظم الشخصيات التي يعتز بها الإسلام دخلت إلى هذا الدين من خلال هذا الطريق.[٢٢]

قَالَ تَعَالَى:﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ آل عمران: ١٤٦ ـ ١٤٧

---

[١٩] - أخرجه الطبراني في معجمه ج٤/ ص٨٦ وابن مردودية

[٢٠] - تفسير فتح القدير للشوكاني ج ١ ص٢٥٩

[٢١] - أنظر فقه السيرة النبوية ص(١٩٢-١٩٣) للبوطي محمد سعيد رمضان البوطي.

[٢٢] - فقه السيرة النبوية ص(١٩٣-١٩٤).

قوله تعالى:(وكأين من نبي قتل معه ربيون كثير) قال الزهري صاح الشيطان يوم أحد قتل محمد فانهزم جماعة من المسلمين قال كعب بن مالك فكنت أول من عرف رسول الله ﷺ رأيت عينيه من تحت المغفر تزهران فنادين بأعلى صوتي هذا رسول الله ﷺ فأومأ إلي أن أسكت فأنزل الله عز وجل وكأين من نبي قتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا .

وأعطاهم النصر والظفر والغنيمة في الدنيا والمغفرة في الآخرة إذا صاروا إليها وهكذا يفعل الله مع عباده المخلصين التائبين الصادقين الناصرين لدينه الثابتين عند لقاء عدوه بوعده الحق وقوله الصدق) والله يحب الصابرين (يعني الصابرين على الجهاد) عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه كان يدعو بهذا الدعاء) اللهم أغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في امري وما أنت أعلم به مني) وذكر الحديث فعلى الإنسان أن يستعمل ما في كتاب الله وصحيح السنة من الدعاء ويدع بما سواه .

فإن الله تعالى قد اختار لنبيه وأوليائه وعلمهم كيف يدعون.[٢٣]

رفع المنزلة والدرجة عند الله تعالى وتكفير السيئات:

وأما دفع البلاء والقضاء بالدعاء، فذكر فيه من الدعوات في الرخاء والبلاء عدة مقامات تكون عند كل مسلم من أعظم الشهادات منها مقام الأنبياء عليهم السلام في الرخاء والرجاء، دعاء زكريا:

" قَالَ تَعَالَى:﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾ مريم: ٥ - ٦ فهب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله ربي رضياً " فقال

[٢٣] -- الجامع لأحكام القرآن تفسير القرطبي (ج٤/ ص٢٢٧).

جـــل جلالـــــه "﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ ﴾ مريم: يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له مـــن قبـــل سميا". ومنها دعاء الأنبياء عند الابتلاء دعاء أيوب ":

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ الأنبياء: "رب إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين " فقال جـــل جلالـــه " ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ الأنبياء: فكشفنا ما به من ضرٍ وآتيناه أهله ومـــثلهم معه رحمة من عندنا وذكرى للعابدين " ومنها دعاء الأنبياء عند النصر على الأعداء دعاء نوح":

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ ﴾ القمر: رب إني مغلوب فانتصر " فأجابه الله جل جلاله ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ ﴾ القمر: ١١ - ١٥ ` ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر " ومنها دعاء الأنبياء فيما يخافون به ما يقضي على الحياة دعاء يونس عليه السلام:

""قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ الأنبياء سبحانك لا إله إلا أنت إني كنت من الظالمين " فقال جل جلاله " ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ الأنبياء: ٨٨ "، ومنهـــا مقامـــات الأولياء كأصحاب طالوت في الدعاء "

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ ﴾ البقرة:

" فقال جل جلاله ": (فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت): " ومنها دعاء أصحاب الكهف حين دعوا فقالوا ": (ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيأ لنا من أمرنا رشدا) " فقال جل جلاله ": (فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا ثم بعثناهم) . "، ومنها مقامات النساء في الدعاء كدعاء امرأة فرعون:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾

التحريم: "، فروي في الأحاديث إجابة سؤالها، ومنها مقامات العصاة في الدعاء كقوم إدريس " فإنه دعا عليهم أن يحبس عنهم الغيث فبقوا عشرين سنة لم يمطروا فدعوا الله جل جلاله فأجاب سؤالهم وكقوم يونس " فإنه دعا عليهم، فدعوا الله تعالى فرحمهم وعكس في الظاهر على نبيهم وبلغتهم آمالهم؛ ومنها الأمم الهالكون في العذاب فقد بينهم الله جل جلاله في الكتاب وذكر لعل المراد منه أنهم لو دعوه لزالت كروبهم، قال سبحانه "

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَـٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ الأنعام:

" ومنها دعاء أعظم الجناة في حال إصراره واستكباره إبليس إذ قال " اجعلني من المنظرين " فأجابه الله جل جلاله بقوله " إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم "، أقول فهل بقيت شبهة أن الدعاء دافع للبلاء عند العقلاء؟.[٢٤]

---

[٢٤] فرج المهموم في تاريخ علماء النجوم لابن طاؤوس (١/٤٩).

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) ﴾ البقرة:

(ولنبلونكم) ولنصيبنكم إصابة من يختبر لأحوالكم هلى تصبرون على البلاء وتستسلمون للقضاء (بشيء من الخوف والجوع) أي بقليل من ذلك وإنما قلله بالإضافة إلى ما وقاهم منه ليخفف عليهم ويريهم أن رحمته لا تفارقهم أو بالنسبة إلى ما يصيب به معانديهم في الآخرة وإنما أخبرهم به قبل وقوعه ليوطنوا عليه نفوسهم (ونقص من الأموال والأنفس والثمرات) عطف شيء أو الخوف وعن الشافعي رضي الله عنه الخوف خوف الله والجوع صوم رمضان والنقص من الأموال الصدقات والزكوات ومن الأنفس الأمراض ومن الثمرات موت الأولاد وعن النبي إذا مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكة أقبضتم روح ولد عبدي فيقولون نعم فيقول الله أقبضتم ثمرة

(ولنبلونكم) ولنصيبنكم إصابة من يختبر لأحوالكم هلى تصبرون على البلاء وتستسلمون للقضاء (بشيء من الخوف والجوع) أي بقليل من ذلك وإنما قلله بالإضافة إلى ما وقاهم منه ليخفف عليهم ويريهم أن رحمته لا تفارقهم أو بالنسبة إلى ما يصيب به معانديهم في الآخرة وإنما أخبرهم به قبل وقوعه ليوطنوا عليه نفوسهم) ونقص من الأموال والأنفس والثمرات (عطف شيء أو الخوف وعن الشافعي رضي الله عنه الخوف خوف الله والجوع صوم رمضان والنقص من الأموال الصدقات والزكوات ومن الأنفس الأمراض ومن الثمرات موت الأولاد وعن النبي e إذا مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكة أقبضتم روح ولد عبدي فيقولون نعم .

وعن النبي من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته وأحسن عقباه وجعل له خلفا صالحا يرضاه (وأولئك هم المهتدون) للحق والصواب حيث استرجعوا وسلموا لقضاء الله تعالى.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما يصيب المؤمن من شوكة فما فوقها إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه خطيئة).[٢٥]

بَاب أَشَدُّ الناس بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأول فالأول:

عن عبد اللَّهِ قال دَخَلْتُ على رسول اللَّهِ وهو يُوعَكُ فقلت يا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا قال أَجَلْ إني أُوعَكُ كما يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ قلت ذلك بأن لك أَجْرَيْنِ قال أَجَلْ ذلك كَذَلِكَ ما من مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى شَوْكَةٌ فما فَوْقَهَا إلا كَفَّرَ الله بها سَيِّئَاتِهِ كما تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا .[٢٦]

فقد يكون للعبد درجة عند الله تعالى لا يبلغها بعمله فيبتليه الله تعالى حتى يدفعه إليها، كما أن الابتلاء طريق لتكفير سيئات المسلم.

وأيضاً: عن أبي هُرَيْرَةَ أَنَّ النبي كان يَتَعَوَّذُ من سُوءِ الْقَضَاءِ وَمِنْ دَرَكِ الشَّقَاءِ وَمِنْ شَمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ وَمِنْ جَهْدِ الْبَلَاءِ قال عَمْرٌو في حَدِيثِهِ قال سُفْيَانُ أَشُكُّ أَنِّي زِدْتُ وَاحِدَةً منها.[٢٧]

وقال أيضاً:(إن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل).[٢٨]

كما أن للابتلاء فوائد عظيمة منها:

معرفة عز الربوبية وقهرها، ومعرفة ذل العبودية وكسرها، الإخلاص، الإنابة إلى الله والإقبال عليه، والتضرع والدعاء، والحلم عن من صدرت

---

[٢٥] - صحيح مسلم -شرح النووي (٦/١٧٢-١٢٨)،كتاب البر والصلة،باب ثواب المؤمن.

[٢٦] -صحيح البخاري ج٥،ص (٢١٣٩).

[٢٧] -صحيح مسلم (ج٤، ص٢٠٨٠).

[٢٨] - سنن النسائي الكبرى (ج٤،ص٣٥٢).

عنه المصيبة، العفو عن صاحبها، الصبر عليها، الفرح بها لأجل فوائدها، الشكر عليها، رحمة أهل البلاء ومساعدتهم على بلواهم، معرفة قدر نعمة العافية والشكر عليها، وما أعده الله تعالى على هذه الفوائد من ثواب الآخرة على اختلاف مراتبها.،وغير.

وقد تعرض النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لأشكال وأنواع وأصناف متعددة من الابتلاء كمحاولة قريش لأبعاد أبي طالب عن مناصرة رسول الله وتشويه الدعوة، وإيذائه صلى الله عليه وسلم، وإيذاء أصحابه وغير ذلك من الابتلاءات ولكنه صبر وانتصر بأمر الله.[29]

وفي حديث آخر: أَنَّهُ خَرَجَ زَائِرًا لِرَجُلٍ مِنْ إِخْوَانِهِ فَبَلَغَهُ شَكَاتُهُ قَالَ فَدَخَلَ عَلَيْهِ فَقَالَ أَتَيْتُكَ زَائِرًا عَائِدًا وَمُبَشِّرًا قَالَ كَيْفَ جَمَعْتَ هَذَا كُلَّهُ قَالَ خَرَجْتُ وَأَنَا أُرِيدُ زِيَارَتَكَ فَبَلَغَتْنِي شَكَاتُكَ فَكَانَتْ عِيَادَةً وَأُبَشِّرُكَ بِشَيْءٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِذَا سَبَقَتْ لِلْعَبْدِ مِنْ اللَّهِ مَنْزِلَةٌ لَمْ يَبْلُغْهَا بِعَمَلِهِ ابْتَلَاهُ اللَّهُ فِي جَسَدِهِ أَوْ فِي مَالِهِ أَوْ فِي وَلَدِهِ ثُمَّ صَبَّرَهُ حَتَّى يُبْلِغَهُ الْمَنْزِلَةَ الَّتِي سَبَقَتْ لَهُ مِنْهُ.[30]

و فوائد الإبتلاء:

- تكفير الذنوب ومحو السيئات .
- رفع الدرجة والمنزلة في الآخرة.
- الشعور بالتفريط في حق الله واتهام النفس ولومها .
- فتح باب التوبة والذل والانكسار بين يدي الله.
- تقوية صلة العبد بربه.

[29] - السيرة النبوية دروس وعبر – د.محمد علي الصلابي – مكتبة المنصورة،ج١،ص٢١٤.

[30] -مسند أحمد (٤٥/٣١٩)

- تذكر أهل الشقاء والمحرومين والإحساس بالآمهم.
- قوة الإيمان بقضاء الله وقدره واليقين بأنه لاينفع ولا يضر الا الله .
- تذكر المآل وإبصار الدنيا على حقيقتها.

والناس حين نزول البلاء ثلاثة أقسام:

الأول: محروم من الخير يقابل البلاء بالتسخط وسوء الظن بالله واتهام القدر.

الثاني: موفق يقابل البلاء بالصبر وحسن الظن بالله.

الثالث: راض يقابل البلاء بالرضا والشكر وهو أمر زائد على الصبر.

والمؤمن كل أمره خير فهو في نعمة وعافية في جميع أحواله قال الرسول صلى الله عليه وسلم " عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له. رواه مسلم.

واقتضت حكمة الله اختصاص المؤمن غالباً بنزول البلاء تعجيلاً لعقوبته في الدنيا أو رفعاً لمنزلته أما الكافر والمنافق فيعافى ويصرف عنه البلاء. وتؤخر عقوبته في الآخرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل المؤمن كمثل الزرع لا تزال الريح تميله ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لا تهتز حتى تستحصد" رواه مسلم.

والبلاء له صور كثيرة:

بلاء في الأهل وفى المال وفى الولد، وفى الدين ، وأعظمها ما يبتلى به العبد في دينه.

وقد جمع للنبي كثير من أنواع البلاء فابتلى في أهله، وماله، وولده، ودينه فصبر واحتسب وأحسن الظن بربه ورضي بحكمه وامتثل الشرع ولم يتجاوز حدوده فصار بحق قدوة يحتذي به لكل مبتلى .

والواجب على العبد حين وقوع البلاء عدة أمور:

(١) أن يتيقن ان هذا من عند الله فيسلم الأمرله.

(٢) أن يلتزم الشرع ولا يخالف أمر الله فلا يتسخط ولا يسب الدهر.

(٣) أن يتعاطى الأسباب النافعة لد فع البلاء.

(٤) أن يستغفر الله ويتوب إليه مما أحدث من الذنوب.

• ومما يؤسف له أن بعض المسلمين ممن ضعف إيمانه اذا نزل به البلاء تسخط و سب الدهر ، ولام خالقه في أفعاله وغابت عنه حكمة الله في قدره واغتر بحسن فعله فوقع في بلاء شر مما نزل به وارتكب جرماً عظيماً.

ما يخفف البلاء عند وقوعه:

أولاً: أن يعلم أن هذا البلاء مكتوب عليه لامحيد عن وقوعه واللائق به أن يتكيف مع هذا الظرف ويتعامل بما يتناسب معه، وفي ذلك الإيمان بالقدر وهو التصديق الجازم بأن كل خير وشر فهو بقضاء الله وقدره، وأنه الفعّال لما يريد، لا يكون شيء إلا بإرادته، ولا يخرج شيء عن مشيئته.[٣١]

ثانياً: أن يعلم أن كثيراً من الخلق مبتلى بنوع من البلاء كل بحسبه و لايكاد يسلم أحد فالمصيبة عامة ، ومن نظر في مصيبة غيره هانت عليه مصيبته.

ثالثاً: أن يذكر مصاب الأمة الإسلامية العظيم بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى انقطع به الوحي وعمت به الفتنه وتفرق بها الأصحاب " كل مصيبة بعدك جلل يا رسول الله "

رابعاً: أنه ربما ابتلاه الله بهذه المصيبة دفعاً لشر وبلاء أعظم مما ابتلاه به ، فاختار الله له المصيبة الصغرى وهذا معنى لطيف.

---

٣١ – التوحيد للناشئة والمبتدئين،عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف (٩٢/١)، تارريخ النشر: ١٤٢٢هـ.

خامسا: قد يكون غافلا معرضا عن ذكر الله مفرطا في جنب الله مغترا بزخرف الدنيا ، فأراد الله قصره عن ذلك وإيقاظه من غفلته ورجوعه إلى الرشد. فإذا استشعر العبد هذه المعاني واللطائف انقلب البلاء في حقه إلى نعمة وفتح له باب المناجاة ولذة العبادة، وقوة الاتصال بربه والرجاء وحسن الظن بالله وغير ذلك من أعمال القلوب ومقامات العبادة ما تعجز العبارة عن وصفة .

قال وهب بن منبه: لا يكون الرجل فقيها كامل الفقه حتى يعد البلاء نعمة ويعد الرخاء مصيبة، وذلك أن صاحب البلاء ينتظرا لرخاء وصاحب الرخاء ينتظر البلاء و قال رسول الله (: يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت في الدنيا بالمقارض) [٣٢]

وأيضاً مما يخفف البلاء عند وقوعه:

الدعاء: قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الدعاء سبب يدفع البلاء، فإذا كان أقوى منه دفعه، وإذا كان سبب البلاء أقوى لم يدفعه، لكن يخففه ويضعفه، ولهذا أمر عند الكسوف والآيات بالصلاة والدعاء والاستغفار والصدقة.

(١) **الصلاة:** فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة . [٣٣]

(٢) **الصدقة**" وفى الأثر "داووا مرضاكم بالصدقة"

(٣) **تلاوة القرآن:** " وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين"ا

(٤) **الدعاء المأثور:** "وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون" وما استرجع أحد في مصيبة إلا أخلفه الله خيرا

---

٣٢ - سنن الترمذي ج٣/ص١٢٣

٣٣ - رواه الإمام أحمد في مسنده ج٢ ص٩٦.

منها.فالإيمان بقضاء الله تعالى -خيراً كان أو شراً- هو أحد أركان الإيمان وأسسه، فالإنسان قبل أن يؤمن به ويستسلم له لا يعد من المؤمنين، ولا يدخل في زمرتهم، وعندما يؤمن بقضاء الله تعالى وقدره ويستسلم له، مع إيمانه بباقي الأركان يصير من المؤمنين. والله تبارك وتعالى عندما يجري على العبد قضاءه بما لا يرضاه العبد مثل: أن يحرمه من الولد، أو يبتليه بالفقر، أو الأمراض والآفات، فلا يعني ذلك أنه تعالى ساخط على ذلك العبد المبتلى، بل قد يكون ذلك لتكفير ومحو الذنوب التي لا ينفك عنها الإنسان غالباً.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾﴾ الشورى:

وما أصابكم- أيها الناس- من مصيبة في دينكم ودنياكم فبما كسبتم من الذنوب والآثام، ويعفو لكم ربكم عن كثير من السيئات، فلا يؤاخذكم بها.[٣٤]

قال العلماء: يبتلى الأنبياء لتضاعف أجورهم، وتتكامل فضائلهم، ويظهر للناس صبرهم ورضاهم ليقتدي بهم، وليس ذلك نقصاً ولا عذاباً.

٣- وتارة يقع البلاء لتمحيص المؤمنين، وتمييزهم عن المنافقين.

قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ العنكبوت

فيبتلي الله عباده ليتميز المؤمنون الصادقون عن غيرهم، وليعرف الصابرون على البلاء من غير الصابرين. { أحسب الناس أن يتركوا . . . } اية .

---

[٣٤] -التفسير الميسر، تأليف عدد من أساتذة التفسيرتحت إشراف د عبدالله بن عبدالمحسن التركي ج١/ ٤٥١،

نزلت في الذين جزعوا من أصحاب النبيِّ صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين . معناه: أحسبوا أن يُقنع منهم بأن يقولوا: إنَّا مؤمنون فقط ولا يُمتحنون بما يُبيِّن حقيقة إيمانهم

{ولقد فتنا الذين من قبلهم } اختبرنا وابتلينا{ فليعلمنَّ الله}صدق{الذين صدقوا} في قولهم: آمنَّا، بوقوعه منهم، وهو الصَّبر على البلاء {وليعلمنَّ} كذب {الكاذبين} في قولهم: آمنَّا، بارتدادهم إلى الكفر عن الدِّين عند البلاء، ومعنى العلم ها هنا العلم به موجوداً كائناً [٣٥]

٤- وتارة يعاقب المؤمن بالبلاء على بعض الذنوب، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد العمر إلا البر.[٣٦]

فعلى المؤمن أن يصبر على كل ما يصيبه من مصائب وبلايا لينال أجر الصابرين الشاكرين، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له. رواه مسلم.

فالمؤمن الذي تصيبه السراء والنعمة فيشكر ربه يحصل الخير، وذلك لأن الله يحب الشاكرين، ويزيدهم من نعمه، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ إبراهيم: ٧].

والمؤمن الذي يصبر على الضراء ينال أجر الصابرين، كما قال الله تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ

٣٥ -الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدي ج٢ص: ١٨٧،

٣٦ - رواه أحمدفي مسنده ج٤ص٥٦، والسيوطي، وابن ماجه في سننه ج٤ص٩٦

﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)﴾ البقرة: ١٥٥ - ١٥٧

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أن من يصبر على فقد (موت) ولده ولا يجزع، بل يسترجع، ويحمد الله، أن الله يبني له بيتاً في الجنة جزاء على صبره وشكره، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا مات ولد العبد، قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد. [٣٧]

ومعنى استرجع: قال "إنا لله وإنا إليه راجعون" فعلى المؤمن أن يقول ذلك إذا أصابته مصيبة من المصائب، وعليه أن يرجع إلى الله، وأن يكثر من ذكره ومن الصلاة، حيث كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر يفزع إلى الصلاة. ومعنى حزبه: نزل به أمر مهم.

ومن الأمور التي تهون المصائب: الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، والوضوء، وتلاوة القرآن الكريم، وتوثيق الصلة بالله سبحانه، والتوبة من كبائر الذنوب....ألخ

وأخيراً على المبتلى أن يلجأ إلى الله في كربته، وأن يتضرع بين يديه لكشف بلواه، فالدعاء هو السلاح الذي يدفع به الضر والبلاء، ويواجه به ما لا قبل له به.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

الدعاء سبب يدفع البلاء، فإذا كان أقوى منه دفعه، وإذا كان سبب البلاء أقوى لم يدفعه، لكن يخففه ويضعفه، ولهذا أمر عند الكسوف والآيات

---

[٣٧] – رواه الترمذي في سننه ج٣ ص٨٨ وقال حديث حسن.

بالصلاة والدعاء والاستغفار والصدقة. وقد لجأ إليه أيوب عليه السلام في بلواه وضره فكشفه الله عنه سبحانه: وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ* فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ [الأنبياء].

الصبر على المرض واحتساب الأجر عند الله يكفر السيئات

ذكر الموت وما بعده يزهدك في الدنيا

إن الحسنات يذهبن السيئات

فإن الإيمان بقضاء الله تعالى – خيراً كان أو شراً – هو أحد أركان الإيمان وأسسه، فالإنسان قبل أن يؤمن به ويستسلم له لا يعد من المؤمنين، ولا يدخل في زمرتهم، وعندما يؤمن بقضاء الله تعالى وقدره ويستسلم له، مع إيمانه بباقي الأركان يصير من المؤمنين، والمؤمنون ثوابهم عند الله تعالى الجنة.

والله تبارك وتعالى عندما يجري على العبد قضاءه بما لا يرضاه العبد مثل: أن يحرمه من الولد، أو يبتليه بالفقر، أو الأمراض والآفات، فلا يعني ذلك أنه تعالى ساخط على ذلك العبد المبتلى، بل قد يكون ذلك لتكفير ومحو الذنوب التي لا ينفك عنها الإنسان غالباً.

قال تعالى: (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) [الشورى: ٣٠].

كما أنه أيضا يكون ابتلاء وامتحانا من أجل إظهار صدق الصادقين في إيمانهم، وتبينه في واقع الأمر، وكشف كذب الكاذبين الذين يدعون الإيمان بالله تعالى وهم كافرون به.

قال تعالى: (الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ) [العنكبوت: ١-٢]. وهذا استفهام استنكاري ومعناه: أن الله تعالى لابد أن يبتلي عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان، كما جاء في الحديث الصحيح:

"أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلباً اشتد به بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة".[٣٨]

فعلى العبد أن يصبر على ما قدره الله تعالى عليه من خير وشر، ولا يقول إلا ما يرضي الله تعالى، لينال بذلك الميزة والخصوصية التي جعلته محل إعجاب وإعظام، كما جاء في صحيح مسلم عن أبي يحيى صهيب بن سنان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له" ولا يعني هذا أن الإنسان إذا ابتلي بما لا يرضيه، ولا يتلاءم مع طبعه أنه لا يجوز له أن يدعو ربه لكشف ما نزل به، وتخليصه منه، بل له أن يدعو ربه، ويتضرع له ليزيل عنه البلاء ويرفعه، والدعاء بكشف البلاء لا ينافي الصبر، فقد كان أنبياء الله تعالى يدعونه، ويسألونه كشف ما نزل بهم.

قال تعالى: (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) [الأنبياء:٨٣].

وقال عز وجل: (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) [الأنبياء:٨٧].

ومعلوم أنه تعالى استجاب دعوة زكريا عليه السلام، فرزقه الولد بعدما تقدمت سنه، ووهن عظمه، وضعفت قوته من الكبر، مع عقم امرأته، ولكن هذا كله لم يمنعه من حسن ظنه بربه، حتى سأله الولد، وهذه هي سنة أنبياء

---

[٣٨] - أخرجه الإمام أحمدفي مسنده ج٢/ص١٦٢ وغيره،

الله تعالى، فعلى العبد أن لا يقنط من رحمة الله تعالى، وأن لا ييأس من زوجه، فمن بيده القضاء هو الذي أمر بالدعاء، ووعد بالاستجابة، ووعده حق وخبره صدق.

إذا الدعاء هو إحدى الوسائل التي يستجلب به المؤمن الرزق من عند الله تعالى، وهو السلاح الذي يدفع به الضر والبلاء، ويواجه به ما لا قبل له به.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الدعاء سبب يدفع البلاء، فإذا كان أقوى منه دفعه، وإذا كان سبب البلاء أقوى لم يدفعه، لكن يخففه ويضعفه، ولهذا أمر عند الكسوف والآيات بالصلاة والدعاء والاستغفار والصدقة.

ويشترط في مشروعية الدعاء أن لا يكون المدعو به مستحيلاً شرعاً أو عقلاً، فإن كان كذلك، فالدعاء به اعتداء، والله تعالى يقول: (ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) [الأعراف:٥٥].

وبهذا يعلم أن الإنسان له أن يدعو الله تعالى أن يعطيه حاجته التي لا يستحيل الحصول عليها شرعاً ولا عقلاً، وكيف يعلم الإنسان أن أمراً ما لم يقدر له إلا بالنسبة لما مضى، وحينئذ فيصير الدعاء به من الاعتداء، لأنه دفع للواقع، ودفع الواقع مستحيل عقلاً.

قال تعالى: (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) (الشورى:٣٠).

كما أنه أيضا يكون ابتلاء وامتحانا من أجل إظهار صدق الصادقين في إيمانهم، وتبينه في واقع الأمر، وكشف كذب الكاذبين الذين يدعون الإيمان بالله تعالى وهم كافرون به.

قال تعالى: (الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ) [العنكبوت:١-٢].

وهذا استفهام استنكاري ومعناه: أن الله تعالى لابد أن يبتلي عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان، كما جاء في الحديث الصحيح: "أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلباً اشتد به بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة" [٣٩]

فعلى العبد أن يصبر على ما قدره الله تعالى عليه من خير وشر، ولا يقول إلا ما يرضي الله تعالى، لينال بذلك الميزة والخصوصية التي جعلته محل إعجاب وإعظام، كما جاء في صحيح مسلم عن أبي يحيى صهيب بن سنان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له" ولا يعني هذا أن الإنسان إذا ابتلي بما لا يرضيه، ولا يتلاءم مع طبعه أنه لا يجوز له أن يدعو ربه لكشف ما نزل به، وتخليصه منه، بل له أن يدعو ربه، ويتضرع له ليزيل عنه البلاء ويرفعه، والدعاء بكشف البلاء لا ينافي الصبر، فقد كان أنبياء الله تعالى يدعونه، ويسألونه كشف ما نزل بهم.

قال تعالى: (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) [الأنبياء:٨٣].

وقال عز وجل: (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) [الأنبياء:٨٧].

وقال تعالى: (وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ) [الأنبياء:٨٩].

---

[٣٩] - أخرجه الإمام النسائي في سننه ج٤(٣٥٢/٤).

ومعلوم أنه تعالى استجاب دعوة زكريا عليه السلام، فرزقه الولد بعدما تقدمت سنه، ووهن عظمه، وضعفت قوته من الكبر، مع عقم امرأته، ولكن هذا كله لم يمنعه من حسن ظنه بربه، حتى سأله الولد، وهذه هي سنة أنبياء الله تعالى، فعلى العبد أن لا يقنط من رحمة الله تعالى، وأن لا ييأس من زوجه، فمن بيده القضاء هو الذي أمر بالدعاء، ووعد بالاستجابة، ووعده حق وخبره صدق.

إذا الدعاء هو إحدى الوسائل التي يستجلب به المؤمن الرزق من عند الله تعالى، وهو السلاح الذي يدفع به الضر والبلاء، ويواجه به ما لا قبل له به.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الدعاء سبب يدفع البلاء، فإذا كان أقوى منه دفعه، وإذا كان سبب البلاء أقوى لم يدفعه، لكن يخففه ويضعفه، ولهذا أمر عند الكسوف والآيات بالصلاة والدعاء والاستغفار والصدقة.

ويشترط في مشروعية الدعاء أن لا يكون المدعو به مستحيلاً شرعاً أو عقلاً، فإن كان كذلك، فالدعاء به اعتداء، والله تعالى يقول: (ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) [الأعراف:٥٥]. وبهذا يعلم أن الإنسان له أن يدعو الله تعالى أن يعطيه حاجته التي لا يستحيل الحصول عليها شرعاً ولا عقلاً، وكيف يعلم الإنسان أن أمراً ما لم يقدر له إلا بالنسبة لما مضى، وحينئذ فيصير الدعاء به من الاعتداء، لأنه دفع للواقع، ودفع الواقع مستحيل عقلاً.وأما بالنسبة للمستقبل، فلا علم له بما سيقع. وعليه، فلا مانع من أن يدعو ربه للحصول عليه. والله أعلم، وليعلم المسلم أن البلاء قد يكون:

١- لتكفير الخطايا، ومحو السيئات، كما في قول الرسول صلى الله عليه وسلم: ما يصيب المسلم من هم، ولا حزن، ولا وصب، ولا نصب، ولا أذى، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه. رواه مسلم.

٢- وتارة يكون لرفع الدرجات، وزيادة الحسنات، كما هو الحال في ابتلاء الله لأنبيائه، قال النبي صلى الله عليه وسلم: أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل.... فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة. رواه البخاري. قال العلماء: يبتلى الأنبياء لتضاعف أجورهم، وتتكامل فضائلهم، ويظهر للناس صبرهم ورضاهم ليقتدى بهم، وليس ذلك نقصاً ولا عذاباً.

٣- وتارة يقع البلاء لتمحيص المؤمنين، وتمييزهم عن المنافقين، قال تعالى: أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ* وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ [العنكبوت:٣].

فيبتلي الله عباده ليتميز المؤمنون الصادقون عن غيرهم، وليعرف الصابرون على البلاء من غير الصابرين.

٤- وتارة يعاقب المؤمن بالبلاء على بعض الذنوب، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد العمر إلا البر.[٤٠]

وأخيراً على المبتلى أن يلجأ إلى الله في كربته، وأن يتضرع بين يديه لكشف بلواه، فالدعاء هو السلاح الذي يدفع به الضر والبلاء، ويواجه به ما لا قبل له به. وقد لجأ إليه أيوب عليه السلام في بلواه وضره فكشفه الله عنه سبحانه: وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ* فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ [الأنبياء]. الصبر على المرض واحتساب الأجر عند الله يكفر السيئات. ذكر الموت وما بعده [٤١]يزهدك في الدنيا.

---

[٤٠] - رواه أحمد والسيوطي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وحسنه٤/ ٥٩٩٧.

[٤١] -مجموع الفتاوى لابن تيمية(٢/٤١٧).

الخاتمة:

النتائج:

أن من حكم الابتلاء:

-معرفة حقيقة النفس وكيفية تقويمها على المنهج الرباني الذي ارتضاه الله سبحانه وتعالى لهذه الأمة.

-الاعداد الحقيقي لتحمل الأمانة ولا يتم إلا بالمعاناة العملية للمشاق، وكذلك بالثقة الحقيقية في نصر الله وثوابه على الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء.

-رفع المنزلة والدرجة عند الله تعالى وتكفير السيئات وذلك بالصبر والتحمل على أقدار الله تعالى كما جاء في الحديث:(عجبا لأمر المؤمن إن أمر المؤمن كله خير إن أصابته سراء فشكر كان خيرا، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرا ».[٤٢]

ومن فوائده:

- تكفير الذنوب ومحو السيئات.
- رفع الدرجة والمنزلة في الآخرة بالصبر على طاعة الله والبعد عن معصية الخالق جل وعلا .
- الشعور بالتفريط في حق الله واتهام النفس ولومها .
- فتح باب التوبة والذل والانكسار بين يدي الله.
- تقوية صلة العبد بربه.
- تذكر أهل الشقاء والمحرومين والإحساس بآلامهم.
- قوة الإيمان بقضاء الله وقدره واليقين بأنه لاينفع ولا يضر إلا الله .سبحانه وتعالى .

---

[٤٢] -شعب الإيمان للبيهقي (٤٣٠٩/٨/١٠)..

• تذكر المآل وإبصار الدنيا على حقيقتها.

وأختم بالصلاة والسلام على رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم،فإن البحث في القرآن الكريم يحتاج إلى فهم عميق ودراية تامة لأنه هو المنهج الرباني لهداية هذه الأمة، فالقرآن فيه شفاء لما في الصدور ودواء لما يبتلى به المؤمن في حياته،وإرثاء لقواعد الصبر والتحمل والرجوع إلى الله تعالى في السراء والضراء.

المصادر والمراجع:

١. أساس البلاغة للزمخشري .
٢. التفسير الكبير للرازي .
٣. التفسير الميسر، تأليف عدد من أساتذة التفسيرتحت إشراف د عبدالله بن عبدالمحسن التركي.
٤. التوحيد للناشئة والمبتدئين،عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف.
٥. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.
٦. الدر المنثورفي التأويل بالمأثور لأبي بكر السيوطي .
٧. السيرة النبوية دروس وعبر – د.محمد علي الصلابي .
٨. الكشاف،لأبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري.
٩. المستدرك على الصحيحين للحاكم .
١٠. المستدرك على الصحيحين للحاكم.
١١. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للطبراني .
١٢. المعجم الكبير للطبراني.
١٣. الوجيزفي تفسير الكتاب العزيز للواحدي .
١٤. تفسير بن جرير الطبري
١٥. تفسير فتح القدير للشوكاني ج ١ ص٢٥٩

١٦. تفسير معالم التنزيل أبو محمد بن مسعود البغوي .
١٧. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان السعدي .
١٨. رواه الإمام أحمد في مسنده ج٢ ص٩٦.
١٩. سنن الإمام النسائي .
٢٠. سنن الترمذي .
٢١. سنن النسائي الكبرى .
٢٢. شعب الإيمان للبيهقي.
٢٣. صحيح البخاري.
٢٤. صحيح بن حبان.
٢٥. صحيح مسلم .
٢٦. فرج المهموم في تاريخ علماء النجوم لابن طاؤوس.
٢٧. فقه السيرة النبوية .
٢٨. فقه السيرة النبوية لمحمد سعيد رمضان البوطي.
٢٩. في ظلال القرآن،لسيد قطب.
٣٠. لسان العرب لابن منظور.
٣١. لسان الميزان، لابن حجر العسقلاني.
٣٢. مجموع الفتاوى لابن تيمية.
٣٣. مسند الإمام أحمد.
٣٤. معجم الطبراني .
٣٥. مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير أبو عبد الله محمد بن عمر التميمي الرازي .